الكتب والكتّاب

تروى كتب الأدب أن معاوية بن أبى سفيان لما رأى بوادر الهزيمة يوم صفين عزم على الفرار فما رده وأثار نخوته ، وتجافى به عن ذلك المسلك الشائن سوى تذكره قول عمرو بن الإطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقدامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمى بعد عن عرض صحيح

وبعض الناس يتخذون لهم كتابا يديمون قراءته . ويلتزمون صحبته ، ويستعينون به على كشف مكنونات الحياة ، وتوضيح أسرارها ، ويستوحونه فى حل مشكلاتهم ، وتفريج كربهم ، ويلتمسون فيه الغذاء الروحى ، والعزاء النفسى ، فإذا رابهم من الدهر الريب ، وعرض لهم ما يعرض للناس من نوبات الضعف ، وانثلام العزم ، وانهارت دعائم مقاومتهم وهموا بالفرار ، كما هم معاوية بالفرار ، سكب ذلك الكتاب فى نفوسهم الشجاعة والثبات ورد عليهم إيمانهم بأنفسهم وبالحياة كما ردت الأبيات التى ذكرتها على معاوية شجاعته وثباته وإباءه . ولكن المشكل هو معرفة المدى الذى تشكل فيه الكتب أخلاقنا ، وتهذبها وتصقلها وتؤثر فيها ، وتسمو بها ، فكثيراً ما نلتمس فى الكتب تأثيرات خاصة ، ولكن سرعان ما تندثر تلك التأثيرات وتزول معالمها . فقد نقرأ القصائد الحماسية فى غفوات الليل وبين الجدران الأربعة ، ويخيل إلينا

بعد القراءة أننا نستطيع مواجهة الأخطار ، والصبر على المكاره ، وأننا صرنا لا نخشى شيئاً ولا نرهب إنساناً مهما سما قدره ، وعظمت قوته ، فإذا أقبل الصباح وخرجنا إلى ميدان الحياة ومجال العمل هبطنا من تلك الأعالى السامقة ، وسرنا فى الأودية والسهول المستوية ، وربما أفزعتنا خفقات النسيم ، أو أزعجنا إنسان ضعيف الحول لا فى العير ولا فى النفير ، وكثيراً ما نقرأ كتباً تملأ نفوسنا بنبيل الأفكار وسامى المشاعر ، ولكن سرعان ما يميل بنا الإغراء وتغلبنا الأهواء ، ولاتسعدنا الأفكار النبيلة ، ولا تنجدنا المشاعر السامية ، ويبدو لنا أننا كنا نخدع أنفسنا ونموه عليها ، فليست ضالتنا التى نبغيها فى الكتب هى المحاولة الفاشلة وإنما الحافز الصادق الوعد البالغ التأثير ، ومن ثم قد يساورنا الشك أحياناً فى قيمة الكتب ومدى تأثيرها ، ولكننا نعلم من ناحية أخرى أن الكثيرين من أفاضل الناس اعترفوا بأن بعض الكتب كان لها فى نفوسهم تأثير كبير ، وأنها وجهت حياتهم وحملتهم على الطريق السوى والمنهج الواضح ، ولا يمكن أن نقدر مدى تأثير الكتب المقدسة أمثال القرآن والأناجيل والتوراة فى إرشاد الضالين ، وتهذيب النفوس وتقوية العزائم ، وإن كنا لا نستطيع أن ننكر أن العكوف على تلك الكتب قد يخلق من بعض الناس متعصبين متهوسين محدودى التفكير ، ضيق الذهن ، ولكنها ما دامت تؤثر فى أكثر الناس تأثيراً حسنا وتتجه بهم إلى الطريق القويم ، فإن هذا يثبت صدق تأثير الكتب فى تهذيب الأخلاق ، وصقل النفوس .

وكون الكتب تؤثر فى تفكيرنا من الأمور التى لا سبيل إلى إنكارها ، ولكن الأفكار لا تؤثر فى الأخلاق تأثيراً مباشراً ، والكتب تؤثر فى تفكيرنا وتحررنا من أسر الأوهام ، وسلطان التقاليد ، فهى تؤثر فى أخلاقنا تأثيراً غير مباشر ، وقد تلقننا حب العدالة الاجتماعية ، والنفور من الظلم والاضطهاد ، وتزيدنا حباً

للإنسانية ، وإيمانا بمستقبلها ، وقد لا تنهض بنا الكتب ، ولا تجعلنا نحلق فى السموات وقد لا تخلق منا أبطالا أو قديسين أو فلاسفة أو شعراء ، ولكنها مع ذلك تؤثر فينا ، وربما تجنبنا الانحدار والتدهور ، والتردى فى العثرات . والسقوط فى الهاويات ، وقد تكون الكتب مثل الدواء علاجا موقوتاً ، وكما أنه ليس هناك دواء يحفظ علينا الصحة طوال الحياة ، فكذلك الكتب قد تنفعنا فى فترة من فترات حياتنا ، أو تخلصنا من أزمة من الأزمات التى ما تنفك تتعقبنا .

الكاتب قوة اجتماعية :

وإذا صح أن للكتب تأثيراً يتفاوت قوة وضعفاً وكثرة وقلة ، فإنه يسوغ لنا إذن أن نعد الكاتب قوة اجتماعية عظيمة التأثير ، خطيرة الشأن ، وأنه عنصر من عناصر الحضارة لا يجوز إغفاله وإهمال أمره . ومن الواضح أن أهم وسائل التربية المؤثرة فى العصر الحاضر هى الجرائد والمجلات والإذاعة والأشرطة السينمائية والمسرح والكتب ، وجميعها من إنتاج عقل الكاتب وثمرات تفكيره وبنات وحيه وفى مستطاع الكاتب أن يلغى عمل المعلم ويبطل وظيفة أستاذ الجامعة ويشل جهود الزعيم الروحى أو السياسى ، وينسخ تأثيره ، لأن جمهور الكاتب أضخم وصوته أعلى وأذيع ، وهو بحكم فنه أعرف بطرائق التأثير . وأساليب الإغراء ، وهو أخلب عبارة ، وأرشق معرضاً ، وأوسع حيلة ، وليست البلاغة والبيان سوى فن غزو القلوب واجتياح العقول ، وهو الفن الذى يجيده الكاتب ويحرز فيه السبق ولا يبارى فيه إنسان . وقد ذكر الناقد الفرنسى الكبير تين Taine فى حديثه عن الكاتب البريطانى العظيم سويفت أنه استطاع بقوة قلمه وسحر بلاغته أن يقاوم مشروعاً نافعاً كان فى طليعة مروجيه والزائدين عنه ومفسرى غوامضه السير إسحق نيوتن العلامة الشهير ، وللكتاب أثر كبير فى

صياغة الرأى العام وتكوينه . فهم إلى حد كبير مسئولون عن توجيهه وإنارة السبيل أمامه ، والعالم اليوم فى مأزق ضنك وموقف فاصل ، فنقص المعرفة وجهل الواقع وفتور الاهتمام بتمييز الحق من الباطل والتقاعد عن نصرة العدالة والنفور من الطغيان وانطفاء جذوة الحماسة الأخلاقية وعدم الغضب للحق من الأعراض والأسباب التى أدت إلى هذه الأزمة ، وقد غزا هذا الإفلاس الأخلاقى أكثر الأمم ضعيفها وقويها وغنيها وفقيرها ، ومما أعان على ذلك أن الكتاب أهملوا رعاية الجانب الأخلاقى فى النفوس وقصروا فى تعهده ، وشد أركانه ، وتثبيت جوانبه ، وتحصينه ووقايته ، وغمرت العالم موجة العناية بالماديات وإهمال الجوانب الروحية والنواحى المعنوية الأدبية ولم يجد الضمير الإنسانى ما يهزه من جموده ، ويوقظه من سباته ، وأصبح هم الناس الحصول على ما يريدون من أية الطرق وبكافة الوسائل فكل وسيلة مباحة ما دامت تحقق الغرض وقل بين الكتاب من يؤثر الألم والعذاب على المساومة والرياء وخذلان المثل العليا أو من يقف موقف الإمام أحمد بن حنبل من الخليفة المأمون أو موقف العلامة ابن السكيت من الخليفة المتوكل .

أثر التفكير العام :

وطريقة تفكير الناس وأسلوب شعورهم فى الأوقات الحرجة الراهنة لها تأثير كبير فى علاج الموقف وتفريج الأزمة ، فهل يقيمون تفكيرهم على الحقائق الواقعة أو على الأوهام المتخيلة ؟ وهل يستعينون بالمشاعر السليمة الراقية أوبالمشاعر الملتوية الهادمة ؟ والمشاهد الآن أن أكثر الأمم تحاول مرمة الخلل وإصلاح الفساد الخارجى ، ولكنها تترك تفكير العقول التى سببت وجود هذه الأحوال نهباً للصدف ، وينجم عن ذلك فوضى التفكير ، والتفكير إذا لم يقم على أساس

ولم يوجه توجيهاً صحيحاً ، أصبح مصدر خطر وباباً من أبواب الشر ، وعندما يقوم التفكير على إدراك الوقائع ويستند إلى الحق ويتغشاه ضوء العواطف السليمة ، والميول الصحيحة غير المنتكسة ، يصبح صالحاً للبناء والتوجيه ، ومن ثم تبعة الكاتب فى هذه الفترة الدقيقة ، وكثير من المجلات فى العصر الحاضر لا تقبل من كتابها إلا الأقاصيص التى تمالق أخس الغرائز وأدنى الشهوات ، وتعرضها فى صورة مكشوفة لا جمال فيها ولا حق . وهذا الإسفاف بعقل الجمهور فى مجال الأقصوصة يهبط بمستواه فى الحياة الواقعية ، ويقدم له غذاء عقلياً مسموماً ، والكتاب الذين يقبلون على مثل هذا الإنتاج السخيف المزرى لابد أنهم قد فقدوا إيمانهم برسالة الكاتب ، وضعفت عقيدتهم فى قوة الفكر وقيمته والفن ومكانته .

ويتحذلق بعض الناس ويقول إن هذا الصنف من الأدب إنما يعبر عن روح العصر دون أن يلقى باله إلى أنه من الصعب هنا أن نوضح المدى الذى يصور به مثل هذا الأدب روح العصر من المدى الذى يهبط بها إليه ، وكيف يصدها عن طريق النهوض والاقتراب من الكمال والمثل العليا ، ولعل السبب فى شيوع هذه الحالة المحزنة الجديرة بالنظر والعلاج أن الأدب الرفيع كان فنا ، ولكنه أصبح فى ملابسات العصر الحديث صناعة يتعاطاها الكتاب لتدر عليهم الربح الوفير ، أى أنهم يتأثرون فى تناولها بدافع الربح والخسارة ، وعوامل المعيشة وأسباب النجاح فلا مفر لهم من توخى كتابة ما يمكن أن يباع فى السوق ، ويقبل عليه الجمهور ، والذين يتقدمون للشراء هم الذين فى يدهم مقاليد النفوذ والمال ، ومن ثم هم الذين يتحكمون فى اختيار موضوع الكاتب وسياسته وتوجيهه .

وقد كثرت فى العصر الحديث طرائق تعليم الكتاب الناشئين أساليب الكتابة

وكيفية تناول مختلف الموضوعات وشتى المسائل وتزويدهم بمعلومات قيمة وملحوظات طريفة مجدية توافى حاجتهم وتمنعهم من التهافت والاضطراب ، ولكن موضوع الكتابة نفسه ومكانتها وسمو غايتها يتعمد إهماله والإعراض عن مواجهته ، والكاتب يتلقى الأمر والتوجيه ، ويصدع بالأمر فيعمل على صبه فى النفوس وإدخاله فى العقول ، ويصوغ الرأى العام على النمط المطلوب ، ويوجهه إلى الغاية المبتغاة .

الكاتب أول رقيب على نفسه :

ولكن الأدب الحق يجب أن يسمو على الصنعة ، ومهما كان الدافع للكاتب على الكتابة وسواء كان هو الحرص على الكسب أو الرغبة فى التعبير عن النفس فإن الكاتب الذى يحترم قارئه لا يقبل أن يقدم له قيماً معكوسة ، أو تفسيرات زائفة ، أو نزعات منحرفة ، ولست أقول بفرض رقابة أدبية على الكتاب ، فإنه يحسن أن يكون الكاتب هو أول رقيب على نفسه ، ومن العبث مطالبته بأن يقسم يمين الولاء لمهنته كما يصنع الأطباء إذا لم يكن ضميره الاجتماعى يقظاً .

وقد يبدو شىء من التناقض بين تقدير الكاتب للتبعة الأدبية الملقاة على عاتقه وبين رغبته الصادقة فى التعبير عن نفسه تعبيراً تاماً خالياً من التكلف والرياء ، والعلاقة بين الفن والأخلاق ليست من المعضلات الهينة ، فإلى أى مدى يعبر الكاتب عن نفسه ويطلق لها العنان بلا كابح ولا رقيب ؟

ربما يساعدنا على جلاء هذا المشكل معرفتنا أن كل فرد مكون من عناصر مختلفة متناقضة بعضها جيد وبعضها ردىء ، وأخلاقنا لها جوانب إيجابية سليمة وجوانب سلبية سقيمة ، وأكثر الكتاب لا يفكرون فى الجانب الذى يعبرون عنه

ويعرضونه على الأنظار ، وما أحسب الفرد ولا المجتمع يستفيدان من التعبير عن الجوانب السلبية ، وأحسب أن التعبير عن تلك الجوانب الدالة على سعة الروح وعظمة القلب وهى موجودة فى جميع الناس بنسب متفاوتة مما يسمو بالفرد والمجتمع على السواء ، وإذا كان ذوق القراء فاسداً منحطاً فهل واجب الكاتب أن يترضى هذا الذوق الفاسد فيزيده فساداً وانحطاطاً وأن يغذى سخفهم ويملى لهم فيه ؟ وهل خلق الكاتب ليكون عبداً مسخراً لدور النشر وآلة صماء فى أيدى أصحاب المجلات والصحف وهم فى دورهم عبيد للجمهور الأرعن السخيف ؟ لقد كان للكتاب مكانة سامية أكسبتهم الاحترام وأسبغت عليهم القداسة ، وفى وسع الكتاب أن يرفعوا بنيانهم بسواعدهم كطائفة تسوغ وجودها فى خدمة المجتمع وتوطيد الحضارة ، وإنما يكون ذلك برفض كبار الكتاب أن يؤجروا أقلامهم فى خدمة الأغراض الفاشلة ، والغايات المسفة ، والسياسات الضارة ، ولا نزاع فى أن ذلك مما يعرقل سير تلك الأغراض ويصرف عنها الناس ، وإذا أكبر الكتاب فنهم عن تمليق المشاعر الدنيئة ، وإيقاظ الأهواء الوضيعة ، كان لذلك أثره فى اجتثاث الفساد . وتصفية الجو وابتعاث الهمم إلى الأغراض المثلى .

إن التفكير الأمين النزيه الواضح القائم على تقدير الحقائق ، وتحرى الوقائع ، ودراسة المشكلات الاجتماعية العظيمة التى تتحدى العالم هو ألزم ما يلزم فى العصر الحضر ، والكاتب الحق هو من يزود قراءه بمعرفة أثرى وتفكير أصفى يدفع بهم إلى الأمام ويستنهض هممهم ، ويوقظ ضمائرهم ، وإذا لم يقدم لهم الحلول المناسبة فلا أقل من أن يشعرهم بضخامة المشكلات التى تواجههم ، وخطورة الموقف ، فلماذا لا يحفل الكتاب إلا بالمال والنجاح والشهرة والراحة الشخصية والترف فى حين أن عمل الناس فى المستقبل متوقف

على تفكيرهم وإرشاداتهم فى هذه اللحظة الدقيقة ؟ فى وسع الكتاب إذا شاءوا وصحت عزيمتهم أن يكونوا القادة الذين يسيرون بالناس ويتقدمونهم إلى أرض الميعاد ، وينقلونهم إلى عالم خير من هذا العالم الراهن .